تعاليم الرّسول الّتي أوحاها الله تعالى إليه ، لو أنّ أهل القرى هؤلاء آمنوا بالله تعالى ربّاً وأفردوه جلّ وعلا بالعبادة واتّقوا عذاب الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي لفتح الله سبحانه وتعالى عليهم بركاتٍ من السّماء بالمطر وبركاتٍ من الأرض بالنّبات وبسائر الخيرات ، ولكنّهم كذّبوا رسل الله تعالى إليهم ، وجحدوا وحي الله تعالى ، وكفروا واستكبروا عن عبادة الله تعالى وصدّوا عن السّبيل فأخذهم الله سبحانه وتعالى أخذ عزيزٍ مقتدر بسبب ما كانوا يكسبون من الذّنوب ويعملون من المآثم والمحارم .

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾
أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

من سمات المؤمنين المّتقين الحذر وعدم الغفلة والخوف ألاّ يتقبّل الله سبحانه وتعالى أعمالهم الصّالحة لأنّ الله سبحانه وتعالى لايقبل من الأعمال الصّالحة الّتي أمر بها الشّارع الحكيم إلاّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم جلّ وعلا . وإلى هذه المعاني السّامية أومأت الآيات الكريمات من سورة المؤمنون[1] قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون . والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون . والّذين هم بربّهم لا يشركون . والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ فهؤلاء المؤمنون المتّقون مشفقون ألاّ يتقبّل الله تعالى منهم صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وسائر أعمالهم الصّالحة . وفي مقابل حذر المؤمنين ويقظتهم غفلة الكافرين وتبلّد أحاسيسهم ، على الرّغم من الموبقات الّتي يرتكبون ، وفي مقدّمتها الإشراك مع الله تعالى غيره . وقد قال الحسن البصريّ رحمه الله : المؤمن يعمل بالطّاعات وهو مشفقٌ وجلٌ خائف . والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن[2] .

---

(١) الآيات ٥٧ ــ ٦١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٤ .

وإنّ الآيات الكريمات الثّلاث الّتي نحن بصددها تتحدّث عن هؤلاء الكفرة الفجرة الخسرة . ويصحّ أن تمثّل كلّ آية كريمةٍ فريقاً من هؤلاء ، ويصحّ أن يشترك الفريق الواحد من هؤلاء في جميع الصّفات أو في بعضها .

لقد جرت العادة بأنّه حينما يكون ثمّة نوعٌ من حياءٍ من عباد الله تعالى من قِبَل مرتكبي الذّنوب والمعاصي ، أن يأتوا تلك الذّنوب ليلاً ، وأن يرتكبوا تلك المعاصي تحت جنح الظّلام ، وقد يكون ثمّة باعثٌ آخر لهؤلاء على الاستخفاء ليلاً بأنّ قلوبهم فيها شيءٌ من خشية الله تعالى ، وكأنّهم باستتارهم بظلام اللّيل يلبّون داعي أنفسهم الأمّارة بالسّوء الرّاغبة في الاختفاء تحت جنح الظّلام الخائفة من الافتضاح في وضح النّهار . وكأنّ الآية الكريمة الأولى تشمل هذا الفريق من العاصين الّذي إن لم يكن عنده شيءٌ من الخشية من الله تعالى فإنّ عنده شيئاً من اعتبارٍ لعباد الله تعالى الّذين لا يملكون له من الله تعالى شيئاً .

ويلاحظ أنّ حرف الفاء الدّالّ على التّرتيب مع التّعقيب والفوريّة هو حرف العطف الّذي يجيء بعد همزة الإنكار : ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ وكأنّ هذه الحال هي أولى حالات ارتكاب المعاصي ، لأنّها تتمّ ليلاً وفي جنح الظّلام ، والآية الكريمة تنكر على مرتكبي المعاصي في الخفاء، ويتقدّم اللّيل على النّهار في هذه الصّفة ، وتسأل في أسلوب الإنكار : أفأمن أهل القرى المكذّبون المرتكبون للمعاصي أن يأتيهم بأسنا بياتاً وعذابنا ليلاً وهم نائمون ! إنّ العذاب الّذي أتى المكذّبين ليلاً مجانسٌ للوقت الّذي يرتكبون فيه الآثام ، وللحال الّتي يأتون فيها المنكر وهي الخفاء والسّتْرُ عموماً ، خفاء اللّيل وسَتْرُه خصوصاً .

وانظر إلى جملة ﴿ يأتي ﴾ الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد ، فهؤلاء الّذين يأتون المنكر يستبعدون أن يأتيهم عذاب الله تعالى ، لذلك هم ينامون ليلاً ملء أعينهم اطمئناناً إلى أنّهم في مأمنٍ من عذاب الله تعالى . وحينما لا يؤمن مرتكبو المعاصي بالله تعالى ربّاً ، وحينما يكذّبون رسله ويكفرون بوحيه تكون آنذاك الطّامّة الكبرى والبليّة العظمى : إنّهم يأمنون عذاب الله تعالى وعقابه .

والآية الكريمة التّالية الّتي تستعمل واو العطف بعد همزة الإنكار : ﴿ أو أمن أهل القرى ﴾ تتحدّث عن الفريق الآخر من مرتكبي المعاصي وقد خلع عِذار الحياء وجاهر بالمعاصي وفاخر بارتكاب الكبائر فلم يخش الله تعالى ولم يستح من عباد الله تعالى . إنّ هذا الفريق انتهى به الدّرك من الوقاحة والقباحة والصّراحة إلى ارتكاب المعاصي نهاراً جِهاراً .

وهذا الفريق القادر على ارتكاب المنكرات في وضح النّهار أكثر قدرة على ارتكابها في ظلام اللّيل . والآية الكريمة تسأل في إنكار : أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ويحقّ عليهم عذابنا ويحلّ بهم عقابنا في وقت الضّحى ، وأكثر أوقات النّهار ضوءاً وضوضاء ! وهم يلعبون ويعبثون ويفرحون ويمرحون ويأتون الكبير من الذّنوب والعظيم من المعاصي .

إن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ في وضح النّهار وهم في أوج حركاتهم ونشاطاتهم ولعبهم وعبثهم تماماً كما هو قادرٌ جلّ وعلا على أن يأخذهم في كلّ وقت .

والآية الكريمة الثّالثة تشير إلى القدرة المطلقة للذّات العليّة على أخذ هؤلاء المرتكبين للمعاصي في كلّ الأوقات أخذ عزيزٍ مقتدر . إن على مرتكبي المعاصي أن يفهموا جيّداً أنّ إمهال الله تعالى لهم بقصد أن يعودوا إلى جادّة الصّواب ، وعليهم ألاّ يفهموا إمهال الله تعالى إهمالاً لهم . وإنّ عليهم إلاّ يأمنوا مكر الله تعالى بإمهالهم مع ارتكابهم للمعاصي فإنّ ذلك استدراجٌ لهم ومكرٌ بهم . وإنّ الّذين يأمنون مكر الله تعالى هم القوم الخاسرون في الدّنيا والآخرة الّذين سيأخذهم الله تعالى إن شاء أخذ عزيزٍ مقتدر وقد أصرّوا على كفرهم واستكبارهم وصدّهم عن السّبيل وارتكاب الكبائر .

ومن البيّن العلاقة الوثيقة بين آيات هذا القسم وبين هذه الآيات الكريمات في أوّل السّورة الكريمة . قال تعالى[1] : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين . فلنسألنّ الّذين أُرسِل إليهم ولنسألنّ المرسلين . فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غائبين ﴾ .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

أو لم يهد للّذين يرثون الأرض من بعد أهلها : عن ابن عبّاس : أو لم يُبيّن لهم[2] وأولم يتبيّن لهم[3] .

---

(١) سورة الأعراف ٤ ــ ٧ . (٢) تفسير الطّبريّ ٩/٧ . (٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٤ .

جعل الله سبحانه وتعالى بعضنا يخلف بعضنا الآخر . وحينما يأخذ الله سبحانه وتعالى قوماً ظالمين أخذ عزيزٍ مقتدر ويخلفهم قومٌ آخرون يرثونهم أرضهم وكلّ ما تركوا وراءهم فإنّ واجب هؤلاء الوارثين أن يأخذوا العبرة مما حلّ بسابقيهم وأن يعملوا الصّالحات ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وإلاّ حلّ بهم العذاب الّذي حلّ بسابقيهم . والعجيب في أمر بعض الوارثين أنّهم لا يتّعظون بالسّابقين وكأنّهم بمنجاةٍ من العقاب الّذي حلّ بسابقيهم .

والآية الكريمة الّتي تبدأ بهمزة الاستفهام الإنكاريّ ، وذلك على غرار ثلاث آياتٍ كريماتٍ سابقات ، توبّخ الوارثين الّذين لا يتّعظون وتقبّح أعمالهم الخسيسة وتسأل في إنكارٍ أولئك الغافلين : أَوَلم يتبيّن لهؤلاء الّذين يرثون الأرض من بعد أهلها الكافرين المستكبرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى الّذين أخذهم الله تعالى بذنوبهم أخذ عزيزٍ مقتدر أنّه لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا السّابقين وأخذناهم بها ونحن نطبع على قلوبهم ونختم عليها فهم لايسمعون الموعظة سماع تدبّر لأنّ على القلوب أقفالها وإن كانوا يسمعون الموعظة بآذانهم الّتي في رؤوسهم ، ولكنّها آذانٌ غير واعية ، لأنّ قلوبهم غير صاغية .

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

في معرض تسلية السّورة الكريمة المكّيّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم تخاطب الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قائلة : تلك القرى الّتي مرّ ذكرها في السّورة الكريمة وهي قرى قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم صلوات الله وسلامه نقصّ عليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من أنبائها ونتلو عليك من أخبارها كي تتبيّن أخذ الله تعالى الكافرين أخذ عزيزٍ مقتدر وتعلم أنت وقومك المؤمنون أنّ العاقبة للمّتقين .

إنّ أولئك الكافرين المكذّبين المستكبرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى قد جاءتهم أجمعين رسلهم بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم

للرّسل من ذي قبل ، وما غيّروا من كفرهم بدعوة الحقّ ومن صدّهم عن سبيل الله تعالى ، وهكذا حقّت على هؤلاء المصرّين على الكفر والعناد كلمة الحقّ جلّ وعلا في قوله تعالى[1] : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّةٍ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

وكما طبع الله على قلوب هؤلاء الّذين كفروا بربّهم وعصوا رسله من هذه الأمم الّتي قصصنا عليك نبأهم يا محمّد في هذه السّورة حتّى جاءهم بأس الله فهلكوا به كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين الّذين كتب عليهم أنّهم لا يؤمنون أبداً من قومك[2] .

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى من بني آدم وهم في عالم الذّرّ العهد بأن يعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وإلى ذلك العهد أشارت هذه السّورة الكريمة . قال تعالى[3] : ﴿ وإذْ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قَبْلُ وكنّا ذرّيّةً من بعدهم . أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

وإلى هذا العهد الّذي أخذه الله تعالى على بني آدم وهم في صلب أبيهم آدم عليه السّلام أشارت الآية الكريمة الّتي نحن بصددها والّتي بيّنت أنّ ربّ العزّة ما وجد لأكثر النّاس من استمساكٍ بالعهد والتزامٍ بالميثاق بأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة وألاّ يشركوا معه جلّ وعلا أحداً سواه ﴿ وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ خارجين عن الصّراط المستقيم .

وإن مخفّفة من الثّقيلة مهملة ، وبعضهم يجعلها عاملة واسمها ضمير الشّأن[4] ويقول الطّبريّ[5] : « وما وجدنا أكثرهم إلاّ فسقةً عن طاعة ربّهم تاركين عهده ووصيّته » .

---

(١) سورة الأنعام ١١٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٩ .

(٣) سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) انظر مثلاً الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٣/٥ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٩/٩ .

بَعْثُ اللهِ تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِآيَاتِهِ التِّسْعِ وَعَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ

الآيات (١٠٣ - ١٣٧)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى بعد أن بعث النّبيّين الّذين مرّ ذكرهم في السّورة الكريمة ونصرهم على الكافرين من أقوامهم الّذين دمّرهم الله تعالى تدميرا ، بعث موسى عليه السّلام ، بآياته التّسع الّتي خصّه الله تعالى بها ومعجزاته البيّنات الّتي اصطفاه عزّ وجلّ بها ، إلى فرعون ملك مصر على عهد موسى عليه السّلام وإلى ملئه وأشراف قومه .

والعجيب في أمر فرعون وملئه أنّهم كفروا بالآيات التّسع كلها وظلموا أنفسهم بإصرارهم على الكفر وظلموا موسى عليه السّلام والمؤمنين به حينما ساموا بني إسرائيل سوء العذاب . وحينما نعلم أنّ الظّلم أساساً وضع الشّيء في غير موضعه ، وقد وضعوا العبادة في غير موضعها ، فذلك معناه أنّ ظلم القوم انحطّ إلى أسفل الدّرَكات بارتكابهم الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه .

ويصحّ أن نفهم القول : ﴿ فظلموا بها ﴾ فظلموا بسببها ، ويصحّ أن نفهم بأنّ ثمّة تضميناً لجملة ظلموا معنى جملة جحدوا وكفروا وقد جاء في سورة النّمل[1] قوله تعالى : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وعليه يكون المعنى وكفروا بها ظلماً وعلوّا . لقد ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بالكفر والطّغيان فانظر يا محمّد بعين قلبك[2] كيف كان عاقبة المفسدين الّذين أغرقناهم .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

وتتجاوز السّورة الكريمة المراحل المبكّرة من حياة موسى عليه السّلام الّتي أشارت إليها

---

(١) الآية ١٣ ، ١٤ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٩ .

مثلاً سورة طه[1] وسورة الشّعراء[2] وسورة القصص[3] وسورة القصص أكثر إفاضةً في الحديث عن المراحل المبكّرة من حياة موسى عليه السّلام من غيرها من السّور . وها نحن أولاء في سورة الأعراف مع موسى عليه السّلام أمام فرعون طاغية مصر وهو يبلّغه رسالة ربّه جلّ وعلا الّتي أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغها فرعون وملأه ، ويشاركه عليه السّلام في هذا التبليغ شقيقه هارون عليه السّلام ..

إنّ موسى عليه السّلام يقول لفرعون طاغية مصر وجهاً لوجه وينادي باسمه : ﴿ يا فرعون إنّي رسولٌ من ربّ العالمين ﴾.

ومن البيّن أنّ فرعون مصر هو الّذي جاء على لسانه كما جاء في سورة القصص[4] : ﴿ يا أيّها الملأ ما علمت لكم من إلهٍ غيري ﴾ وكما جاء في سورة النّازعات[5] : « أنا ربّكم الأعلى ﴾ .

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

لفظه حقيق ذات علاقةٍ بالحقّ . وأصل الحقّ المطابقةُ والموافقة[6] وثمّة قراءتان في قوله تعالى : ﴿ حقيقٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ ﴾ فقرأه جماعةٌ من قرّاء المكّيّين والمدنيّين والبصرة والكوفة : حقيقٌ على ألاّ أقول ، بإرسال الياء من على وترك تشديدها بمعنى أنا حقيقٌ بألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ . فوجّهوا معنى على إلى معنى الباء كما يقال : رميت بالقوس وعلى القوس ، وجئت على حالٍ حسنةٍ وبحالٍ حسنة[7] والمعنى : حقيقٌ بألاّ أقول

---

(١) الآيات ٣٧ ــ ٤١ .
(٢) الآيات ١٨ ــ ٢٢ .
(٣) الآيات ٧ ــ ٢٨ .
(٤) الآية ٣٨ .
(٥) الآية ٢٤ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفانيّ « حق » ١٢٥ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٩/١٠ .

على الله إلاّ الحق ، أي جديرٌ بذلك وحريٌّ به[1] وقال بعض المفسّرين ، معناه : حريصٌ على ألاّ أقول على الله إلاّ الحقّ[2] وإلاّ بحقّ[3] وقرأ ذلك جماعةٌ من أهل المدينة : حقيقٌ عليَّ ألاّ أقول ، بمعنى ، واجبٌ عليَّ ألاّ أقول وحقٌّ عليّ ألاّ أقول[4] .

إنّ موسى عليه السّلام يخاطب طاغية مصر بأنّه عليه السّلام جديرٌ به وخليقٌ به ألاّ يقول على الله تعالى إلاّ الحقّ فما من إلهٍ إلاّ الله وليس فرعون إلاّ أحد عباد الله تعالى الّذي لا إله إلاّ هو . ويؤكّد موسى عليه السّلام لفرعون أنّه عليه السّلام قد جاءه هو وملأه ووصلهم فعلاً بآيةٍ بيّنةٍ وحجّةٍ ظاهرةٍ من ربّهم جلّ وعلا بأنّه رسول ربّ العالمين ، فعلى فرعون أن يُرْسل مع موسى عليه السّلام إلى الشّام ، بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم خليل الرّحمن[5] .

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

إنّ فرعون ، طاغية مصر ، يخاطب موسى عليه السّلام الّذي أخبره بأنّه رسولٌ من ربّ العالمين وبأنّه جاء ببيّنةٍ من ربّه جلّ وعلا دليلاً على صدقه عليه السّلام ، إنّ فرعون يخاطب موسى عليه السّلام ويقول له : إن كنت يا موسى جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصّادقين على أنّك رسولٌ من ربّ العالمين .

وإنّ جمع الآية الكريمة في نسق بين جملتي جاء وأتى فرصةٌ مواتيةٌ كي ننبّه إلى مظهرٍ من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، ومناسبةٌ طيّبة كي نشير إلى فضل الله تعالى علينا ، حينما تبيّنا ، ربّما لأوّل مرّة ، فإنّا لم نقف على هذا الرّأي عند غيرنا ، حينما تبيّنا أنّ جملة جاء لاتُسْتَعْمَلُ في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب المكانيّ والزّمانيّ والمعنويّ أو النّفسيّ ، وأنّ جملة أتى

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٠ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٠ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٣٦ والجلالين .

لا تُسْتَعْمَلُ في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكانيّ والزّمانيّ والمعنويّ و النّفسيّ . ويبدو هذا الاستعمال الفريد والدّقيق والعجيب في القرآن الكريم حينما يجمع السّياق في نسقٍ بين هاتين الجملتين على جهة الخصوص .

وفي هذه الآية الكريمة تُسْتَعْمَلُ جملة جاء في حقّ البيّنة أو الآية الّتي جاء بها موسى عليه السّلام والّتي قال عنها في الآية الكريمة السّابقة إنّه جاء بها فعلاً ، في حين تُسْتَعْمَلُ جملة أتى على لسان فرعون الّذي يستبعد مجيء هذه الآية . إنّ فرعون غير مصدّق أنّ لدى موسى عليه السّلام آيةً حاضرة ، وهو من الوجهة النّفسيّة كذلك يتمنّى ألاّ تكون تلك الآية قريبةً أو موجودةً أساساً . ولهذا يجيء على لسان فرعون القول : ﴿ فأت بها إن كنت من الصّادقين ﴾ والمعنى : إن كنت يا موسى من الصّادقين أنّك رسولٌ من ربّ العالمين فأت بهذه الآية الّتي نستبعد مجيئك بها .

واللّطيف في أمر هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم بشأن عجيب استعماله لجملتي جاء وأتى أنّه يأتي كذلك في موضعٍ آخر في هذه السّورة الكريمة وذلك في الآية الكريمة التّاسعة والعشرين بعد المائة ، الّتي تستعمل فيها جملة أتى دليلاً على الزّمن البعيد ، وجملة جاء دليلاً على الزّمن القريب ، وذلك على لسان قوم موسى عليه السّلام . قال تعالى : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربّكم أن يُهْلِك عدوّكم ويستخلِفَكُمْ في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

من البيّن أنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن آيتين من آيات موسى عليه السّلام التّسع ، وأنّ الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن آية العصا الّتي تتحوّل بإرادة الله تعالى ثعباناً عظيماً ، وهو الذّكر من الحيّات[1] حينما يلقيها موسى عليه السّلام ، وأنّ الآية الكريمة الأخرى تتحدّث عن آية اليد الّتي تتحوّل بيضاء وتتلألأ من غير برصٍ ولا مرض[2] حينما يخرجها موسى عليه السّلام من تحت إبطه وقد كانت أدماء . ونودّ أن نستأنس في هذا

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٦ .

الشّأن ببعض آي الذّكر الحكيم . جاء في سورة النّمل مثلاً[1] قوله تعالى : ﴿ إذ قال موسى لأهله إنّي آنست ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلّكم تصطلون . فلمّا جاءها نودي أن بورك من في النّار ومن حولها وسبحان الله ربّ العالمين . يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك . فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبراً ولم يعقّب . ياموسى لا تخف إنّي لا يخاف لديّ المرسلون . إلاّ من ظَلَم ثمّ بدّل حسناً بعد سوءٍ فإنّي غفورٌ رحيم . وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ والجانّ : الحيّة الخفيفة[2] إنّ عصا موسى عليه السّلام تتبيّن لمن يراها أنّها بإرادة الله تعالى حيّةٌ تسعى وثعبانٌ عظيمٌ[3] وحينما يريد عليه السّلام من الحيّة أن تعود بإرادة الله تعالى عصا مرّةً أخرى لايفعل عليه السّلام أكثر مِنْ أخذها والإمساك بها وقد جاء في سورة طه[4] قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى . قال هي عصاي أتوكّأ عليها وأهشّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها ياموسى . فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ وآية سورة الأعراف الّتي نحن بصددها تتحدّث بإيجازٍ عن هذه الآية من الزّاوية المناسبة .

فإذا تحوّلنا إلى آية سورة الأعراف الأخرى الّتي تتحدّث عن الآية الأخرى تبيّنا أنّها هي الأخرى تتحدّث من الزّاوية المناسبة عن آية اليد والمعنى أنّ موسى عليه السّلام أخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء للنّاظرين تتلألأ من غير برصٍ ولا مرض . والمراد بالجيب الجزء المقطوع من الثّوب الّذي يدخل الإنسان رأسه منه وهو من الجَوْب بمعنى القطع[5] وقد قال تعالى[6] : ﴿ وثمود الّذين جابوا الصّخر بالواد ﴾ أي قطعوا الصّخر . ونودّ أن نتمثّل العمليّتين اللّتين يقوم بهما موسى عليه السّلام كي تتحوّل إثر العمليّة الأولى يد موسى عليه

---

(١) الآيات ٧ ــ ١٢ .

(٢) الجلالين .

(٣) انظر تفسير الطبري ٩/١٠ .

(٤) الآيات ١٧ ــ ٢١ .

(٥) انظر مثلا مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « جوب » ١٠٢ .

(٦) سورة الفجر ٩ .

السّلام الأدماء بيضاء ، وكي تعود إثر العمليّة الأخرى اليد أدماء تارةً أخرى . وفي سبيل هذه الغاية نحن نودّ أن نستأنس ببعض آي الذّكر الحكيم الّتي تشير إلى أجزاء هاتين العمليّتين . جاء في سورة طه[1] قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوءٍ آيةً أخرى ﴾ والمعنى واضمم ياموسى وأدخل يدك اليمنى بمعنى الكفّ إلى جنبك الأيسر تحت العضد إلى الإبط وأخرجها تخرج خلاف ما كانت عليه من الأدمة بيضاء من غير سوء ، أي برصٍ ، تضيء كشعاع الشّمس تغشى البصر[2] وإلى هذه العمليّة الأولى أشار كذلك قوله تعالى في سورة النّمل[3] : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ وإلى العمليّتين معاً أشار القرآن الكريم في أسلوبه المعجز ببلاغة الحذف وذلك في قوله تعالى[4] : ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جناحك من الرَّهْب ﴾ والرّهب بمعنى الخوف الحاصل من إضاءة اليد . إنّه بشأن العمليّة الأولى يقال لموسى عليه السّلام اسلك وأدخل يدك في جيبك وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء . وبشأن العمليّة الأخرى يقال له عليه السّلام أدخل يدك في جيبك واضمم كفّك إلى جناحك بمعنى الإبط والعضد وما جاورهما واضمم إليك جناحك وأخرج يدك تخرج أدماء تارةً أخرى . وإنّ آية سورة الأعراف الّتي نحن بصددها تتحدّث عن العمليّة الأولى . والله أعلم .

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

جرى بين فرعون الطّاغية وبين الملأ من قومه وأشرافهم الّذين استخفّهم فأطاعوه حوارٌ ساخن في شأن موسى عليه السّلام الّذي أظهر الله سبحانه وتعالى على يديه معجزتي

---

(١) الآية ٢٢ .
(٢) الجلالين .
(٣) الآية ١٢ .
(٤) سورة القصص ٣٢ .

العصا واليد ، وكان بينهم اتّفاقٌ على أنّ موسى عليه السّلام ساحرٌ كبير وعليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، بصنعة السّحر ، وكان بينهم اتّفاقٌ كذلك على أنّ موسى عليه السّلام إنّما يريد أن يخرجهم جميعاً من أرض مصر . ويسأل فرعون أخيراً أشراف قومه وخاصّته : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ وما هو الرّأي الّذي تقترحون كي نتّفق عليه ، وما هو العمل الّذي ترون أن نقوم به كي نفسد على موسى وأخيه هارون السّحر العظيم والبلاء الكبير . لقد جاء هنا على ألسنة الملأ القول : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ وجاء في سورة الشّعراء[1] قوله تعالى : ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ إنّ القولين اللّذين يصدران من فرعون ومن الملأ واحد . وهكذا اتّفق فرعون والملأ بعد التّشاور على تحديد أبعاد المشكلة وبقي الاتّفاق على الحلّ والعمل وهو الّذي يطلبه في كلتا المرّتين فرعون الطّاغية القلِق الخائف الوجِل في القول على لسانه : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

أرجه وأخاه : عن ابن عبّاس : أخّره[2] .

حاشرين : عن ابن عبّاس : الشُّرَط[3] أي من يحشر لك السّحرة من سائر البلاد ويجمعهم[4] .

وجه الشّبه كبير بين الآيتين الكريمتين هنا وبين الآيتين الكريمتين في سورة الشّعراء[5] قال تعالى : ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم ﴾ .

إنّ الملأ الّذين استخفّهم فرعون الطّاغية واستفزّهم فأطاعوه يقترحون عليه أن يؤخّر موسى وأخاه هارون عليهما السّلام إلى أجلٍ معلوم ، وموعدٍ مضروب ريثما يرسل جنوده وشرطه إلى سائر المدائن والأقاليم في مصر كي يأتوا بكلّ ساحر عالم ، بل بكلّ سحّارٍ عليم

---

(١) الآية ٣٤ ــ ٣٥ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٣٦/٢ .
(٥) الآية ٣٦ ، ٣٧ .

كي يفسد على موسى عليه السّلام سحره ويرد كيده . وقد زادت سورة طه[1] هذا الجانب وضوحاً . قال تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلّها فكذّب وأبى . قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتيّنك بسحرٍ مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى . قال موعدكم يومُ الزّينة وأن يُحْشَرَ النّاس ضُحى . فتولّى فرعون فجمع كيده ثمّ أتى ﴾ .

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

اجتهد فرعون طاغية مصر في إرسال جنده إلى كافّة أنحاء مصر من أجل جمع السّحرة عنده قبل الموعد المضروب مع موسى عليه السّلام . وإلى ذلك أشار قوله تعالى[2] : ﴿ فتولّى فرعون فجمع كيده ثمّ أتى ﴾ وثمّة وجه شبه كبيرٍ بين هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الأعراف وآيتين كريمتين من سورة الشّعراء سبقتهما ثلاث آياتٍ كريمات تشير إلى اهتمام فرعون والنّاس عموماً بذلك الموعد يوم الزّينة . قال تعالى[3] : ﴿ فجُمع السّحرة لميقات يومٍ معلوم . وقيل للنّاس هل أنتم مجتمعون . لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين . فلمّا جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم إذاً لمن المقرّبين ﴾ .

إنّ السّحرة الّذين ظنّوا موسى عليه السّلام ساحراً مثلهم كما أفهمهم فرعون وملؤه يسألون فرعون الطّاغية الّذي احتفى بهم : أئنّ لنا لأجراً ومكافأة سخيّةً إن كنّا نحن الغالبين فهزمنا موسى السّحّار العليم على رءوس الأشهاد . وهل يهتمّ السّحرة لغير المال ؟ لا . وهل يأبه فرعون لأيّ مال يُنْفَق ويُطْلَبُ منه أن يَدْفع مقابل دحر موسى عليه السّلام ؟ لا . لهذا حينما سأل السّحرة من فرعون المال الكثير وافقهم على سؤالهم ووعدهم بما لم يخطر لهم على بال ، بأن يكونوا من جلسائه وخاصّته ومن ملئه وحاشيته .

---

(١) الآيات ٥٦ ــ ٦٠ .

(٢) سورة طه ٦٠ .

(٣) سورة الشّعراء ٣٨ ــ ٤٢ .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾
قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ
وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

ذكرت سورة طه النّصيحة الّتي أسداها موسى عليه السلام للسّحرة بأن يتّقوا الله تعالى ويفردوه جلّ وعلا بالعبادة ، والحوار الّذي دار بين السّحرة والنّجوى الّتي تمّت بينهم حتّى خيّروا موسى عليه السّلام بين أن يُلقي أو أن يكونوا هم أوّل من ألقى . قال تعالى[1] : ﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسْحِتَكُمْ بعذابٍ وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النّجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلى . فَأَجْمِعوا كيدكم ثمّ ائتوا صفّاً وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا أن نكون أوّل من ألقى . قال بل ألقُوا ..... ﴾ .

إنّ السّحرة يسألون موسى عليه السّلام إمّا أن تُلْقِي يا موسى عصاك الّتي تتحوّل حيّةً تسعى وإمّا أن نكون أوّل من ألقى حباله وعصيّه . وسمح لهم موسى عليه السّلام بأن يكونوا هم الملقين أوّلا ﴿ فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون ﴾[2] وسحروا أعين النّاس ، وصرفوها عن حقيقة إدراكها ، واسترهبوا النّاس ، بمعنى أنّهم أدخلوا على نفوسهم الرهبة وهي المخافة مع التّحرّز والاضطراب[3] حتّى خافوا من العصيّ والحبال ظنّاً منهم أنّها حيّات وجاءوا كما قال الله بسحرٍ عظيم ، بتخييلٍ عظيمٍ كثيرٍ من التّخييل والخداع[4] . ومِنَ العلماء من فهم رغبة السّحرة في الإلقاء أوّلاً من تأكيدهم ضميرهم وَحْدَهم[5] .

---

(١) سورة طه ٦١ ــ ٦٦ .
(٢) سورة الشّعراء ٤٤ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « رهب » ٢٠٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٤/٩ .
(٥) انظر هنا المثل السّائر لابن الأثير ٢٠٤/٢ .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

تمكّنت الرّهبة والاضطراب والذُّعر من النّاس حينما رأوا الوادي ممتلئاً بضخام الحيّات وخبيث الثّعابين الّتي تسعى راكباً بعضها على بعض ، بينما تسلّل إلى نفس موسى عليه السّلام نوعٌ من الخوف أن يلتبس على النّاس سحر السّحرة بآيته عليه السّلام لأنّهما من جنسٍ واحد ، ونوعٌ من الخوف لذلك المنظر المخيف . وإنّ الله سبحانه وتعالى مع موسى وهارون عليهما السّلام يسمع ويرى جلّ وعلا فيثّبت موسى عليه السّلام ويربط على قلبه . جاء في سورة طه[1] قوله تعالى : ﴿ قال بل ألْقُوا فإذا حبالهم وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه من سحرهم أنّها تسعى . فأوجس في نفسه خيفةً موسى . قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى . وألْقِ ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يُفْلح السّاحر حيث أتى . فألْقِي السَّحَرَةُ سُجَّداً قالوا آمنّا بربّ هارونَ وموسى ﴾ .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السّلام أن يلقي عصاه فألقاها . وانظر إلى رحمة الله تعالى بموسى عليه السّلام الّذي أوجس في نفسه خيفة ، ولعلّه ذُهِل عن آية العصا الّتي في يده وها هو ذا ربّ العزّة يوحي إليه عليه الصّلاة والسّلام بأن يلقي عصاه فإذا هي تلقف وتتناول بحذقٍ[2] وتلقم بفمها وتبتلع[3] ما يأفكون ويصرفون عن وجهه الحقيقيّ[4] وما يسحرون كذباً وباطلا[5] وما يقلبون بتمويههم[6] قال ابن عبّاس : فجعلت لا تمرّ بشيءٍ من حبالهم ولا من خشبهم إلاّ التقمته فعرفت السّحرة أنّ هذا شيءٌ من السّماء ليس هذا بسحر[7] .

---

(١) الآيات ٦٦ ــ ٧٠ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « لقف » ٤٥٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٤/٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « أفك » ١٩ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٤/٩ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير ابن كثير ٢٣٧/٢ .

وانظر إلى ابتداء هاتين الآيتين الكريمتين بالفاء الّتي تدلّ على التّرتيب مع التعقيب الفوريّ وترتّب اللّاحق على السّابق . قال تعالى : ﴿ فوقع الحقّ وبطل ماكانوا يعملون . فغُلِبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ .

ومعنى : ﴿ فوقع الحقّ ﴾ فظهر الحقّ ، عن مجاهد[1] وثبت أنّ ما جاء به موسى عليه السّلام آيةٌ من الله تعالى على صدقه عليه السّلام ، ومعنى : ﴿ وبطل ما كانوا يعملون ﴾ ذهب هباءً ما كانوا يعملون من السّحر والحيلة والتّمويه والكيد لموسى وهارون عليهما السّلام . ومعنى : ﴿ فغلبوا هنالك ﴾ فَهُزِم هنالك شرّ هزيمة السّحرة وفرعون وملؤه ، ومعنى : ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ وعاد فرعون وملؤه ذليلين مهينين بسبب انهزام السّحرة أمام الملأ وعلى رءوس الأشهاد . قال محمّد بن إسحاق : جعلت تتبع تلك الحبال والعصيّ واحدةً واحدةً حتّى ما يرى بالوادي قليلٌ ولا كثيرٌ ممّا ألقوا ، ثمّ أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت[2] .

أما وقد ثبت للسّحرة نبوّة موسى عليه السّلام وأنّه رسول ربّ العالمين فإنّهم ما كان منهم إلاّ أن خرّوا ساقطين على وجوههم سجّداً لله ربّ العالمين ، قائلين من أعماقهم : آمنّا بربّ العالمين ، الجنّ والإنس وجميع الأشياء وغير ذلك ، ويدبّر ذلك كلّه ربّ موسى وهارون لا فرعون[3] ومليكه وخالقه الّذي أرسل موسى عليه السّلام بالصّدق .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

حينما أُلْقِي السّحرةُ ساجدين لربّ العالمين مؤمنين به جلّ وعلا مصدّقين لموسى عليه السّلام أنّه رسول ربّ العالمين ثارت ثائرة فرعون الطّاغية وجُنّ جنونه وقال لمن آمن من

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٥/٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٧/٢ .

(٣) انظر تفسير الطّبريّ ١٥/٩ .

السّحرة مهدّداً ومتوعّداً أآمنتم بموسى وصدّقتموه[1] وأقررتم بنبوّته قبل أن آذن لكم بالإيمان به[2] وأسمح لكم بتصديقه وأبيح لكم اتّباعه ! إنّ هذا الّذي فعلتموه من تصديق موسى والسّجود لربّ موسى وهارون ــ وليس للطّاغية ــ لمكرٌ مكرتموه في المدينة وكيدٌ دبّرتموه لأهلها لتخرجوهم منها وتكونوا أنتم وموسى وأخوه الوارثين للقبط الحاكمين للبلاد المستأثرين بخيراتها فسوف تعلمون عن قريبٍ عذابي الأليم وأخذي الشّديد وكيدي الأكيد . لأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، وذلك بأن يقطع الطّاغية من أحدهم يده اليمنى ورجله اليُسْرَى ، أو يقطع يده اليُسْرَى ورجله اليُمْنى ، فيخالف بين العضوين في القطع . فمخالفته في ذلك بينهما هو القطع من خِلاف . ويقال إنّ أوّل من سنّ هذا القطع فرعون[3] ومن البيّن أنّ هذا النّوع من العذاب الّذي سنّه فرعون الطّاغية ونفّذه ، كان المراد منه تعذيب هؤلاء المؤمنين من السّحرة أشدّ العذاب ، كما كان المراد منه اتّخاذهم عبرةٍ للمعتبرين ونكالاً للآخرين . وها هو ذا اللّعين لا يكتفي بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف فيحسم موضع القطع بالنّار كيلا يستمرّ تدفّق الدّمّ وكي يتوقّف نزيفه . إنّما يترك المعذّبين ينزفون ما شاء الله تعالى الّذي يسمع ويرى أن ينزفوا ، وبعد فترةٍ من الوقت وعلى مهل يصلّب هؤلاء المؤمنين على جذوع النّخل كي يكونوا عبرةً ونكالا . وانظر إلى حرف العطف ثمّ الدّالّ على التّرتيب مع التّراخي في الآية الكريمة الثّانية : ﴿ لأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثمّ لأصلّبنّكم أجمعين ﴾ جاء في سورة طه[4] قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السّحر فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنّكم في جذوع النّخل ولتعلمنّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ وجاء في سورة الشّعراء[5] قوله تعالى : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم . إنّه لكبيركم الّذي علّمكم السّحر فلسوف تعلمون . لأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلّبنّكم أجمعين ﴾ .

---

(١) معاني القرآن للفرّاء ١/٣٩١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٦ .

(٤) الآية ٧١ .

(٥) الآية ٤٩ .

وانظر إلى لفظة أجمعين في الأعراف والشّعراء الّتي تفيد أنّ السّحرة لن ينجو واحدٌ منهم من بطش فرعون مادامو مؤمنين بالله تعالى ربّاً وبموسى عليه السّلام رسولاً . وانظر إلى تشديد القول : ﴿ لأصلّبنّكم ﴾ وقد قرأه بعض أهل مكّة بالتّخفيف ﴿ لأَصْلِبَنّكم ﴾ وهو مثل قولك : قتلتُ القوم وقتّلتهم . إذا فشا القتل جاز التّشديد[1] .

قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

إنّا إلى ربّنا منقلبون : يعني بالانقلاب إلى الله الرّجوع إليه والمصير[2] .

وما تنقم منّا إلاّ أن آمنّا بآيات ربّنا : يقول : ما تنكر منّا يافرعون وما تجد علينا إلاّ من أجل أن آمنّا أي صدّقنا[3] .

بآيات ربّنا : يقول بحجج ربّنا وأعلامه وأدلّته[4] .

أفرغ علينا صبراً : الفراغ خلاف الشّغل وقد فَرَغ فَراغاً وفُروغاً وهو فارغ . قال : سنفرغ لكم أيّها الثّقلان . وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً ، وأفرغت الدّلو صببت ما فيه ، ومنه استعير : أفرغ علينا صبرا[5] .

أجاب السّحرة الّذين ذاقوا حلاوة الإيمان فرعون الطّاغية الّذي هدّدهم بالتّعذيب والتّقتيل والتّصليب بأنّهم إلى ربّهم جلّ وعلا منقلبون وإليه تعالى راجعون وصائرون في كلّ الأحوال ومهما كانت الكيفيّة الّتي تنتهي بها حياتهم بإرادة الله تعالى .

وانظر إلى لفظ الرّبّ الحبيب إلى كلّ نفسٍ مؤمنة تقيّة في القول : ﴿ إنّا إلى ربّنا منقلبون ﴾ إذ المعروف أنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل في القرآن الكريم في مواقف الخصوص

---

(١) معاني القرآن للفرّاء ١/٣٩١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٦ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٦ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « فرغ » ٣٧٧ .

واستشعار العبد في الأعماق كبير الرّضا وعظيم الامتنان لمربّيه جلّ وعلا بنعمه وآلائه وكبير الحاجة والفقر إلى تلك النّعم والآلاء .

وفي الآية الكريمة التّالية يخاطب مؤمنو السّحرة فرعون الطّاغية الّذي زعم بمنتهى الوقاحة والقباحة أنّه الرّبّ الأعلى لقومه ، يخاطب مؤمنو السّحرة فرعون والأسى يملأ جوانحهم والإنكار على فرعون يفيض به حالهم ومقالهم قائلين : إنّك لا تنقم منّا يافرعون إلاّ ما يستحقّ الرّضا ولا تنكر علينا إلاّ ما يوجب القبول وهو الإيمان بآيات ربّنا جلّ وعلا الّتي اصطفى بها رسوله موسى عليه السّلام والّتي جاءتنا ووصلتنا كما جاءتك ووصلتك ، فآمنّا بالله تعالى ربّاً وبموسى عليه السّلام رسولاً . لقد كان المنتظر منك الإيمان بل لقد كان الواجب عليك السّبق إلى الإذعان والإيقان . والعجيب في شأنك يا فرعون أنّ هذه الآيات البيّنات والمعجزات الباهرات لا تزيدك إلاّ عتوّاً واستكبارا .

وأمّا نحن فما الّذي نملك تجاه حمقك وجنونك ، وبغيك وطغيانك سوى أن نفرّ إلى أحكم الحاكمين وأن نسأله العون والإسعاد وأن يفرغ علينا ربّنا جلّ وعلا الصّبر إفراغاً ، وأن يصبّ علينا السُّلوان صبّاً ، وأن يتوفّانا ، حينما يأذن بقبض أرواحنا إليه ، وهو راضٍ عنّا ، مسلمين له جلّ وعلا وحده لا شريك له ، مصدّقين رسوله موسى عليه السّلام . قال ابن عبّاس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج : كانوا في أوّل النّهار سحرة وفي آخره شهداء[1] جاء في سورة طه[2] على لسان مؤمني السّحرة قوله تعالى : ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والّذي فطرنا فاقض ما أنت قاض . إنّما تقضي هذه الحياة الدّنيا . إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السّحر . والله خيرٌ وأبقى . إنّه من يأت ربّه مجرماً فإنّ له جهنّم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصّالحات فأولئك لهم الدّرجاتُ العُلى . جنّاتُ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكّى ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٨ .

(٢) الآيات ٧٢ ــ ٧٦ .

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

قال الأشراف بل الأشرار من قوم فرعون الطّاغية وقد سمعوا من مؤمني السّحرة ما سمع فرعون الطّاغية وخاطبوا فرعون محرّضيه ضدّ موسى عليه السّلام وقومه : أتذر موسى وقومه ، وتترك موسى وجماعته وتذرهم ليفسدوا في الأرض بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ويذرك وآلهتك ويتركك ويهجرك ولا يعبدك وأنت الرّبّ الأعلى ويترك ويهجر أصنامك الصّغار الّتي أَذِنْتَ بأن تُعْبَد معك بعد أن أعلنت أنّك الرّبّ الأعلى ! لقد صدق الحقّ جلّ وعلا في القول عن هؤلاء الأشرار الذّليلين الحقيرين في سورة الزّخرف[1] : ﴿ فاستخفّ قومه فأطاعوه إنّهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

ولمّا كان للطّاغية سابقة في قتل أطفال بني إسرائيل الذّكور واستحياء الإناث خوفاً من المولود في بني إسرائيل الّذي قيل للطّاغية إنّ ذهاب ملكه على يديه هدّد الطّاغية بأنّه سيقوم بالفعلة الشّنيعة السّابقة ذاتها ، وها هو ذا يعلن على رءوس الأشهاد وأمام الملأ وعلى مرأى ومسمع من جميع الحاضرين بأنّه سيقتّل ، هكذا في صيغة التّشديد الّتي تدلّ على تكثير الفعل ، ذكور أبناء بني إسرائيل ، ويستحيي ويستبقي إناثهم اللّاتي يعبّر عنهنّ الطّاغية بالنّساء باعتبار ما يؤلن إليه بعد البلوغ لتسخيرهنّ من أجل غاياته الخسيسة وأهدافه الرّخيصة .

وإذا كان القتل من نصيب ذكور المولودين في بني إسرائيل والاستحياء من نصيب الإناث فإنّ القهر والبطش والعذاب والذّلّ والأذى من نصيب غير المقتولين . جاء على لسان فرعون الطّاغي الباغي الّذي لا يرقب في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمّة ، والّذي جفّت في ذاته منابع الإنسانيّة وروافد الرّحمة قول الحقّ العزيز الجبّار المتكبّر مالك الملك جلّ وعلا : ﴿ وإنّا فوقهم قاهرون ﴾ وانظر إلى لفظة فوق الّتي تفيد مكان فرعون ومكانته فوق مؤمني بني إسرائيل وفق عقله السّخيف ومنطقه السّقيم ، وإلى القول : ﴿ قاهرون ﴾ الّذي يفيد قهر فرعون مؤمني بني إسرائيل وسحقهم .

---

(١) الآية ٥٤ .

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

حينما سمع أتباع موسى عليه السّلام تهديدات فرعون الطّاغية الّذي فعل ببني إسرائيل قبل مجيء موسى عليه السّلام ما فعل وكان لتلك التّهديدات آثارها الأليمة على نفسيّات بني إسرائيل وأتباع موسى عليه السّلام كان من موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين محاولة لحمل قومه على احتمال الشّدائد والصّبر على الابتلاء ، وذلك بأمرهم من ناحية بالاستعانة بالله تعالى الّذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء العالم بقول فرعون وعمله ، وبأمرهم من ناحيةٍ أخرى بالصّبر على ما أصابهم . ومن البيّن التّرتيب الطّبيعيّ للأمرين ، فرارٌ إلى أحكم الحاكمين واستعانةٌ به جلّ وعلا . ثمّ الصّبر . والحقيقة أنّنا بصدد درسٍ عظيمٍ من دروس القرآن الكريم يلقيه علينا موسى عليه السّلام .

وإنّ خطاب موسى عليه السّلام لقومه يشمل حال فرعون الطّاغية كما يشمل مآله بإذن الله تعالى ، وذلك في القول : ﴿ إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ إنّ هذه الكرة الأرضيّة كلّها وفيها أرض مصر ، وما أصغر أرض مصر بالنّسبة إلى الكرة الأرضيّة ، هي ملكٌ لله تعالى وحده لا شريك له . والله سبحانه وتعالى يورث هذه الأرض من يشاء من عباده وخلقه . وإنّ الوارث لهذه الأرض من عباد الله تعالى ، سواءٌ أكان عاصياً طاغياً ، كفرعون أم كان طائعاً ، محطُّ اختبارٍ من الله تعالى وابتلاء . والله سبحانه وتعالى مالك الملك ، ويؤتي جلّ وعلا الملك من يشاء وينزع الملك ممّن يشاء ، ويعزّ جلّ وعلا من يشاء ويذلّ من يشاء ، لا رادّ لقضائه جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه سبحانه وتعالى .

ويقرّر موسى عليه السّلام في خطابه قومه بإيحاءٍ من ربّه جلّ وعلا الحقيقة الّتي تزداد نصوعاً بمرور اللّيالي والأيّام وذلك في القول : ﴿ والعاقبة للمتّقين ﴾ .

إن للباطل جولةً أو جولات ولكنّ الجولة الأخيرة بإذن الله تعالى والعاقبة الحميدة للمتّقين الّذين يرقبون الله تعالى في كلّ أقوالهم وأفعالهم .

قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

إنّ بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام الّذين حثّهم على الاستعانة بالله تعالى وبالصبّر وبشّرهم بسنّة الله تعالى بأنّ العاقبة للمتّقين فعليهم أن يتّقوا الله تعالى يقولون لموسى عليه السّلام معبّرين عن آلامهم الموصولة مع فرعون الطّاغية وملئه : ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد دليلٍ من أوضح الأدلّة في القرآن الكريم بأن أتى تدلّ على البعد وبأنّ جاء تدلّ على القرب . إنّ قوم موسى عليه السّلام يبثّونه عليه السّلام شكواهم بأنّهم آذاهم فرعون من قبل أن يأتيهم موسى عليه السّلام برسالته من ربّ العالمين فقد خاف فرعون على ملكه من الرّسول المبعوث الّذي قيل له إنّ زوال ملكه على يديه فقتّل ذكور الأطفال واستحيا النساء . وها هو ذا فرعون الطّاغية يهدّد بني إسرائيل بفعله الشّنيع السّابق ذاته ، وها هو ذا فرعون الطّاغية يقرن الفعل بالقول كعادته ، ويجاهر بعداوته لقوم موسى عليه السّلام ومن باب الأولى لموسى عليه السّلام .

ويبيّن موسى عليه السّلام لقومه فحوى القول في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ والعاقبة للمتّقين ﴾ وذلك في القول : ﴿ عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ والمعنى عسى ربّكم يا بني إسرائيل أن يهلك عدوّكم ، فرعون وملأه ، ويأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ، ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ، ويجعلكم الوارثين لأرض مصر بعد هلاك فرعون الطّاغية وملئه ، فينظر جلّ وعلا ويعلم جلّ وعلا علم ظهور كيف تعملون بعدهم . أتشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه فتعملون عمل المتّقين ؟ أم تكفرون ــ لاسمح الله ــ نعمه جلّ وعلا وآلاءه ، فتعملون عمل الكافرين للنّعم ، الجاحدين للآلاء ، الطّغاة البغاة كفرعون وملئه ؟

وهكذا يتبيّن المسئوليّة العظمى الملقاة على ظهور الّذين يمكّن الله سبحانه وتعالى لهم في الأرض وقد قال تعالى[1] : ﴿ الّذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا

---

(١) سورة الحجّ ٤١ .

بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور ﴾ وهذه المسئوليّة العظمى الملقاة على ظهور المسلمين اليوم كي ينتشلوا الإنسانيّة من الوهدة السّحيقة الّتي انحطّت فيها ، ومن حمأة الرّذيلة الّتي انغمست فيها ، أومأ إليها قوله تعالى[1] : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزي القوم المجرمين . ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ .

إنّ كلّ أسباب عودة مجد أمّة الإسلام بإذن الله تعالى موجودة فعلى المسلمين أن يأخذوا بهذه الأسباب مستعينين بالله تعالى وهم دائماً وأبداً موضع المسئوليّة أمام الله تعالى وفي كلّ الأحوال . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا جميعاً رشدنا إنّه جلّ وعلا جوادٌ كريم .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

السّنون بكسر السّين وضمّها جمع السَّنة ، والسّنة اثنا عشر شهراً وقد قال تعالى[2] : ﴿ إنّ عدّة الشّهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السّماواتِ والأرض منها أربعةٌ حرم ﴾ . والسّنة أيضاً القحط والجدب . وأكثر ما تستعمل السّنة في الحول الّذي فيه الجدب ، يقال : أسنت القوم . أصابتهم السّنة[3] قال الشّاعر :

فليست بسَنْهاءٍ ولا رُجّبيّةٍ ولكن عرايا في السّنينِ الجوائح[4]

---

(١) سورة يونس ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة التّوبة ٣٦ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « سنه » ٢٤٥ .

(٤) لسان العرب « سنة » و« عرا » و« قرح » و« جوح » وأمالي القالي ١/١٢١ والسّنهاء : الّتي أصابتها السّنة المجدبة . والرُّجّبيّة : هي النّخلة الّتي تبني حولها حظيرة يمنع بها من ثمرها ، أو هي الّتي يُخاف سقوطها فيُعْمَل لها رُجبة . والعرايا الّتي توهب وتطعم النّاس . والجوائح : من الجَوْح ، بمعنى الإهلاك والاستئصال .

قال تعالى [1] : ﴿ أربعين سنة ﴾ وقال[2] : ﴿ سبع سنين دأبا ﴾ وقال[3] : ﴿ ثلثمائةٍ سنين ﴾ وقال : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ﴾ وكلّ ذلك عبارةٌ عن الجدب[4] .

الأخذ في الأصل التّناول باليد ، ومعناه هنا الابتلاء في المدّة الّتي كان أقام بينهم موسى يدعوهم إلى الله[5] والأخذ يقترن به القسوة والعنف والشدّة . والآية الكريمة تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى قد أخذ آل فرعون ، وهم خاصّته وأشراف القوم بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات . وحينما يصيب القحط والجدب ونقص الثّمرات والطّعام آل فرعون وهم الخاصّة ، فذلك دليلٌ على أنّ ما أصاب العامّة أشدّ وأصعب ونستطيع أن نفهم السّنين بأنّها الجدب الّذي أصاب البلاد كلّها ، وذلك على غرار الجدب الّذي أصاب مصر في عهد يوسف عليه السّلام . ويقال إنّ سنى الجدب سبعٌ[6] . ونستطيع أن نفهم نقص الثّمرات بأنّه تأكيدٌ للجدب والقحط بحيث إنّه شمل من الطّعام ما يكاد يكون ضروريّاً كالحبوب . وإنّما نرى هذا الرّي من زاوية المقارنة بين حال مصر في سنى القحط على عهد يوسف عليه السّلام وملك مصر العادل ، فقد أكرم الله تعالى مصر والعالم آنذاك بيوسف عليه السّلام الّذي أصبح عزيز مصر والّذي كان القويّ الأمين والّذي استطاع بفضل الله تعالى أن يجنّب مصر نقص الثّمرات بحيث إنّه كان يعطي كلّ شخصٍ وافدٍ عليه من خارج مصر ومن باب أولى من داخلها حمل بعير ، نرى هذا الرّأي من زاوية المقارنة بين حال مصر على عهد يوسف عليه السّلام وبين حال مصر في سنى القحط على عهد فرعون طاغية مصر . وإنّ القحط زحف إلى الثّمرات فكانت ناقصة وليست منعدمةً تماماً برحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيء .

وتقرّر الآية الكريمة الحكمة من أخذ الله تعالى آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات : ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾ والمعنى لعلّهم يتّعظون .

---

(١) سورة المائدة ٣٦ .
(٢) سورة يوسف ٤٧ .
(٣) سورة الكهف ٢٥ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهانيّ « سنه » ٢٤٥ .
(٥) البحر المحيط ٣٦٩/٤ .
(٦) البحر المحيط ٣٦٩/٤ .

وإذا كنّا فهمنا رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ من نقص الثّمرات فإنا نستطيع أن نفهم هذه الرّحمة كذلك من حرف الجرّ الّذي يفيد التّبعيض في القول : ﴿ ونقصٍ من الثّمرات ﴾ وكأنّ هذا النّقص أشدّ وضوحاً بشأن بعض الثّمرات منه بشأن بعضها الآخر . والله أعلم .

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

تتحدّث الآية الكريمة عن فرعون وآله وموقفهم من ابتلاء الله تعالى لهم بالحسنات والسّيّئات ، فتقرّر أنّ آل فرعون إذا جاءتهم الحسنة من الله تعالى من خصبٍ ورزقٍ وصحّةٍ وما إلى ذلك قالوا لنا هذه ونحن نستحقّها ونحن أهلٌ لها . وانظر إلى جملة جاء الّتي تدلّ على المجيء الفعليّ والوصول والقرب . ويُفْهَم من المجيء لطف المجيء وحسن التّأتّي . وانظر في المقابل إلى جملة : ﴿ وإن تصبهم سيّئة ﴾ والمعنى وإن تصبهم مباشرةً ولا تخطئهم سيّئة . ويُفْهَم من الإصابة عُنْف الوقع وشدّة الارتطام . وبسبب السّيّئة الّتي تصيب فرعون وملأه هم يتطيّرون ويتشاءمون بموسى ومن معه من المؤمنين زاعمين أنّ ما أصابهم من سيّئة كجدبٍ وقحطٍ ومرضٍ وبلاء بسبب وجود موسى عليه السّلام ومن معه بين ظهرانَيْهِمْ . وينسى فرعون وملؤه أنّ الحسنة الّتي جاءتهم إنّما جاءتهم وموسى وملؤه بين ظهرانيهم كذلك ! ولانجد تفسيراً لهذا التّناقض سوى عمى البصيرة وعمى القلوب الّتي في الصّدور .

وللزّمخشريّ في الكشّاف[1] اجتهادٌ لطيف في مجيء إذا مع الحسنة وإن مع السّيّئة ، ومجيء الحسنة معرفة والسّيّئة نكرة . يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة : « فإن قلت : كيف قيل : فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة ، وإن تصيبهم سيّئة بإن وتنكير السّيّئة ؟ قلت : لأنّ جنس الحسنة وقوعه كالواجب لكثرته واتّساعه . وأمّا السّيّئة فلا تقع إلاّ في

---

(١) ١/٥٦٨ .

النُّدرة ولا يقع إلاّ شيءٌ منها . ومنه قول بعضهم : قد عددت أيّام البلاء فهل عددت أيّام الرّخاء » ؟ وقد فسّره أبو حيّان[1] بقوله : « وأتى الشّرط بإذا في مجيء الحسنة ، وهي لما تيقّن وجوده ، لأنّ إحسان الله هو المعهود الواسع العامّ لخلقه بحيث إنّ إحسانه لخلقه عامّ حتّى في حال الابتلاء . وأتى الشّرط بإن في إصابة السّيّئة وهي للممكن ، إبرازاً أنّ إصابة السّيّئة ممّا قد يقع وقد لا يقع » .

وإذا كان معنى القول : ﴿ يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا : ذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرّخاء والخصب والعافية مذ جاء موسى عليه السّلام[2] فإنّ ربّ العزّة يدحض افتراء فرعون وملئه بقوله عزّ من قائل : ﴿ إلا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ عن ان عبّاس : ألا إنّما طائرهم عند الله ، يقول : مصائبهم عند الله[3] أي مَن قِبَل الله[4] ولكنّ أكثر هؤلاء القوم الّذين أعمى الله سبحانه وتعالى بصائرهم لا يعلمون هذه الحقائق .

والحقيقة أنّ هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف الّتي يجيء فيها ذكر التّطيّر والطّائر تذكّرنا بالآية الكريمة من سورة النّمل الّتي يجيء فيها هي الأخرى ذكر التّطيّر والطّائر . قال تعالى[5] : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون . قال ياقوم لم تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلّكم تُرْحمون . قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تفتنون ﴾ كما تذكّرنا آية سورة الأعراف بالآيتين الكريمتين من سورة يس الّتي يجيء فيهما ذكر التّطيّر والطّائر . قال تعالى[6] : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

ومن البيّن أنّ آية سورة النّمل تتحدّث عن ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام الّذين كانوا

---

(١) البحر المحيط ٤/٣٧٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٢٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٢٠ وتفسير ابن كثير ٢/٢٣٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٩ .

(٥) سورة النّمل ٤٥ ــ ٤٧ .

(٦) سورة يس ١٨ ، ١٩ .

يسكنون العلا أو مدائن صالح شماليّ المدينة المنوّرة ، وأنّ آيتي سورة يس تتحدّث عن المرسلين الثّلاثة من أتباع عيسى عليه السّلام إلى مدينة أنْطاكيَة بلد حبيب النّجّار الّذي يقال إنّه نزل فيه[1] : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى ﴾ وبين أنطاكية وحلب يومٌ وليلة[2] .

ومن البيّن أنّ هذه الآيات الكريمات الّتي تتحدّث عن التّطيّر والطّائر والّتي تشير إلى فترات زمنية بعيدة ومتباعدة من الأدلّة على أنّ القرآن الكريم الّذي نزل بلسانٍ عربيّ مبين لم يلو للّغة العربيّة عنقاً ولم يقسرها على أن تسير في غير الخطّ الّذي تسير فيه وارتضته ، بل على العكس من ذلك نهض بهذه الخصائص إلى أرفع الدّرجات الّتي ما كانت اللّغة العربيّة بدون القرآن الكريم لتستطيع أن ترقى إليها وتحلّق في أجوائها .

ويبدو أنّ هذه فرصةٌ مواتيةٌ كي نتّخذ من آية سورة الأعراف وما شاكلها من آياتٍ كريماتٍ دليلاً على ذلك .

من البيّن أنّنا في الآيات الكريمات أمام التّطيّر وأمام لفظة طائر . لقد جاء بشأن التّطيّر ما يلي :

في سورة الأعراف القول : ﴿ وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾

وفي سورة النمل القول : ﴿ قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك ﴾ .

وفي سورة يس القول : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم ﴾ .

والتّطيّر من عادات العرب قبل الإسلام ، وأصله فيما يقال التّطيّر بالسّوانح والبوارح من الظّباء والطّير وغيرهما ، وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم فنفاه الشّرع وأبطله ونهى عنه وأخبر أنّه ليس له تأثيرٌ في جلب نفع ولا دفع ضَرر[3] وإنّ اشتقاق التّطيّر من الأصل اللّغويّ « طير » الّذي اشتقّ منه لفظ طائر يفيد ارتباط عمليّة التّطيّر بالطّير أساساً ثمّ توسّعوا في ذلك . وقد كان العربيّ إذا أراد أمراً أهاج الطّائر الّذي يصادفه فإن اتّجه الطّائر

---

(١) سورة يس ٢٠ .

(٢) معجم البلدان « أنطاكية » .

(٣) لسان العرب « طير » .

يميناً وأرى مهيجه جانبه الأيمن تفاءل العربّي وسمّى ذلك الطّائر بالسّانح . وإن اتّجه الطّائر شمالاً وأرى مهيجه جانبه الأيسر تشاءم العربيّ وسمّى ذلك الطّائر بالبارح . ومن ذلك المثل : مَنْ لى بالسّانح بعد البارح أي بالمبارك بعد الشّؤم[1] .

وهكذا يتبيّن أنّ التّطيّر في الأصل يفيد التّفاؤل والتّشاؤم معاً بناءً على اتّجاه الطّائر الّذي أُثير وأهيج . وكان العربيّ يمضي في عمله مع الطّائر السّانح ويكفّ عن المضيّ في عمله مع الطّائر البارح .

وبمرور الوقت استأثر التّطيّر والطّيرة بالتّشاؤم . وهذا الاستئثار أكّدته الآيات الكريمات الّتي أشارت إلى التّطيّر ، فإنّ كلّ الكافرين تشاءموا من رسل الله تعالى إليهم .

والمعروف أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كان يتفاءل ولا يتطيّر . وكانت العرب مذهبُها في الفأل والطّيرة واحدٌ فأثبت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الفأل واستحسنه وأبطل الطّيرة ونهى عنها[2] وأصل الفأل الكلمةُ الحسنة يسمعها عليلٌ فيتأوّل منها ما يدلّ على برئه كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم ، وهو عليل ، فأوهمه سلامته من علّته ، وكذلك المُضِلّ يسمع رجلاً يقول يا واجد فيجد ضالّته ، والطّيرة مضادّةٌ للفأل[3] .

وإذا كان التّطير ــ أو الطّيرة ــ قد خضع لظاهرة تطوّر الدّلالة اللّغويّة ، على نحو ما تبيّن من شمول التّطيّر أساساً للتّفاؤل والتّشاؤم واقتصاره على إفادة التّشاؤم بعد ذلك ، فإنّ لفظة طائر قد خضعت هي الأخرى لظاهرة تطوّر الدّلالة اللّغويّة . بل إنّ لفظة طائر كانت أكثر خضوعاً لهذه الظّاهرة وأكثر تطوّراً .

وتفسير ذلك أنّنا حينما ننظر إلى لفظة طائر في معاجم اللّغة نجد أنّها تفيد العديد من المعاني ، فهي بمعنى الطّائر الّذي يطير بجناحيه ، والطائر : ما تيمّنت به أو تشاءمت ، وأصله في ذي الجناح . والطّائر الفأل والشّؤم ، يقال مثلاً : طائرَ الله لا طائرك ، على معنى نحبّ طائر الله لا طائرك . ونسأل الله طائر الله لا طائرك . والطّائر بمعنى الحظّ وبمعنى العمل . قال أبو عبيد : الطّائر عند العرب الحظّ ، وهو الّذي تسمّيه العرب البَخْت .

---

(١) القاموس المحيط « سنح » و« برح » .

(٢) لسان العرب « طير » .

(٣) لسان العرب « طير » .

وقال الفرّاء : الطّائر معناه عندهم العمل ، وطائر الإنسان عمله الّذي قلّده ، وقيل رزقه ، والطّائر الحظّ من الخير والشّرّ[1] .

وهكذا يتبيّن أنّ لفظة طائر لها العديد من المعاني ، ومع أنّ معاجمنا اللّغويّة لا تسعفنا في مجال تطوّر الدّلالة ، فإنّا من جانبنا سنحاول ترتيب تطوّر الدّلالة في ضوء المراحل الّتي تمرّ وفقها عمليّة التّطيّر لدى العرب . والله وليّ التّوفيق .

نستطيع أن نفهم أنّ لفظة طائر تفيد أساساً هذا المخلوق الّذي يطير بجناحيه . ولمّا كان العرب قبل الإسلام يتفاءلون بالطّائر الّذي يهيجون أو يتشاءمون ، لذا يصحّ أن نذهب إلى أنّ لفظة طائر أفادت معنى التّشاؤم ومعنى التّفاؤل إضافةً إلى المعنى الأوّليّ . ولمّا كان المتفائل والمتشائم يقوم كلٌّ منهما بعمل بعد إثارة الطّائر ، المتفائل يمضي قدماً في عمله ، والمتشائم ينكص على عقبيه كي يقوم بعملٍ آخر ، لذا يصحّ أن نذهب إلى أنّ لفظة طائر أفادت معنى العمل إضافةً إلى المعاني السّابقة .

ولمّا كان العمل الّذي يقوم به المتفائل والمتشائم ، المتفائل بخاصّة ، يصحّ أن يكون التّوفيق حليفه أو الفشل مصيره ، لذا يصحّ أن نذهب إلى أنّ لفظة طائر أفادت معنى الحظّ من الخير والشّرّ ، والرّزق ، والبخت ، إضافةً إلى المعاني الأخرى .

في ضوء تطوّر الدّلالة للفظة طائر على النّحو الّذي تبيّن لنا يبدو أنّ لفظة طائر في لسان العرب انتهت إلى إفادة الخير والشّرّ المرتّبين على العمل الّذي يقوم به المرء وفقاً لمقاييس عرب الجاهليّة .

وبعد هذه الجولة مع لفظة طائر في لسان العرب لنتحوّل إلى لفظة طائر في الآيات الكريمات .

جاء في سورة الأعراف القول : ﴿ ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وجاء في سورة النّمل القول : ﴿ قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتنون ﴾ .

وجاء في سورة يس القول : ﴿ قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ .

ومن البيّن أنّ استعمال لفظة طائر في الآيات الكريمات من قبيل المشاكلة ومراعاة النّظير ، وأنّ المقصود بلفظ طائر في هذه الآيات الكريمات معنىً آخر غير المعنى الّذي يفهمه المتشائمون من الكافرين والّذين يفيد لفظ الطائر عندهم في مثل هذا الاستعمال

---

(١) انظر لسان العرب « طير » .

معنى الشّؤوم بالمعنى الجاهلّي وهو ذات المعنى الّذي يفيده التّطيّر الّذي جرى على لسانهم والّذي أومأت إليه الآيات الكريمات .

وكأنّ للفظ الطّائر في الآيات الكريمات معنيين اثنين ، المعنى الأوّل هو الّذي يفهمه الكافرون المتشائمون . وهم بطبعهم غير قادرين على فهم غير هذا المعنى وعلى الارتقاء إلى ما فوق هذا المستوى من الدّلالة . والمعنى الآخر للفظ طائر هو الّذي تقصده الآيات الكريمات وهو المعنى الصّحيح وهو المعنى الإسلاميّ . وهذا المعنى مفاده أنّ ما حلّ بأولئك الكافرين المكذّبين لرسل الله تعالى من سيّئات هو من الله تعالى ، وهو حظّهم ونصيبهم بسبب أعمالهم السّيّئة بالمقياس الإسّلامي وبسبب كفرهم وتكذيبهم رسل الله تعالى إليهم .

في سورة الأعراف يجيء القول : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ والمعنى أنّ ما أصابهم من سوء ليس بسبب وجود موسى عليه السّلام والمؤمنين بين ظَهرانَيْهِمْ إنّما هو انتقامٌ من الله تعالى منهم وثمرةٌ نكدةٌ بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى وسوء أعمالهم .

وفي سورة النّمل يجيء القول : ﴿ قالوا طّيّرنا بك وبمن معك . قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتنون ﴾ والمعنى أن ما أصابكم من سوءٍ إنّما هو بإذنٍ من الله تعالى بسبب سوء أعمالكم وأنّكم قومٌ تُفْتنون وتختبرون بالسّيّئات والحسنات .

وفي سورة يس يجيء القول : ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ والمعنى أنّ سوء عملكم الّذي لازمكم هو سبب ما حلّ بكم بإذن الله تعالى من سوء .

وهكذا يتبيّن أنّ لفظة طائر يفهمها الكافرون المتشائمون من زاويتهم الجاهليّة القاصرة الحمقاء ، بينما المعنى الصّحيح للفظة طائر هو المعنى الإسلامّي الّذي عّبرت عنه في أوضح صورة هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال[1] قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم ﴾ .

---

(١) الآية ٥٣ .

والقرآن الكريم في هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[1] قال تعالى : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ﴾ يحلّق بمعنى لفظة طائر إلى أرحب الآفاق وأعلى الأجواء الّتي ما كانت هذه اللّفظة بدون القرآن الكريم لتدنو منها أو لتتطلّع إليها .

إنّ كلّ إنسانٍ يوم القيامة ، سواءٌ أكان صالحاً أم طالحاً ، سوف يلزمه طائره ، أي كتاب أعماله الّذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ولا يفارقه ، والّذي سيكون منه ، إن كانت الأعمال صالحةً ، بمثابة الطّوق الّذي يحلّى ويزيّن عنق الحمامة المطوّقة ، والّذي سيكون منه ، إن كانت الأعمال طالحة ، بمثابة الغُلّ الّذي يشدّ بطبعه يدي المجرم إلى عنقه شدّاً . إنّ كتاب الأعمال بمثابة الطّوق أو الغلّ . وإنّ الطّوق يحلّى جيد الحمامة . وإنّ الغلّ ينفرد بقدرته على جمع يدي المجرم وشدّهما إلى العنق شدّاً . وقد قال تعالى[2] : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ﴾ إنّ الصالح يسرّه كتابه ، وإنّ الطّالح يسوؤه كتابه . قال تعالى[3] : ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[4] وقال تعالى[5] : ﴿ يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً . ويحذّركم الله نفسه . والله رءوفٌ بالعباد ﴾ صدق الله العظيم . والله أعلم .

---

(١) الآية ١٣ .

(٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء ١٣ ، ١٤ .

(٤) درسنا هذه الظّاهرة بتفصيل في كتابنا تأمّلات في سورة الإسراء ٨٧ فما بعدها .

(٥) سورة آل عمران ٣٠ .

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

مهما : اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصبٍ مفعول به لفعلٍ محذوف يفسّره الفعل الظّاهر تقديره تعطنا . تأت : مضارع مجزوم فعل الشّرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاء من : ﴿ فما نحن ﴾ رابطة لجواب الشّرط[1] .

على الرّغم من اختبار الله تعالى فرعون وملأه بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات وبأنواع الشّدّة إلى جانب الرّخاء فإنّهم أصرّوا على تكذيب موسى عليه السّلام وهاهم أولاء يقولون لموسى عليه السّلام مهما تأتنا به من آية ومهما تجئنا به من علامة لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين وما نحن لك بمصدّقين . ويلاحظ مجيء جملة ﴿ تأتنا ﴾ الّتي تفيد معنى البعد بشأن الآيات والمعجزات . والمعنى أنّ أيّ آيةٍ دالّةٍ على نبوّتك يا موسى ، مهما كان حظّها من البعد والصّعوبة ، ونصيبها من الغرابة والتّفرّد لتسحرنا بها ، فإنّا لن نؤمن بها . كما يلاحظ الإصرار على استعمال صفة السّحر في حقّ موسى عليه السّلام .

وتجاه إصرار فرعون وملئه على الكفر دعا موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا على فرعون الطّاغية وملئه فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الطّوفان . والمراد بالطّوفان الماء الغامر . والمعروف أنّ نهر النّيل يتدفّق في أرض مصر ، والمعروف كذلك أنّه سنويّاً يفيض في العادة . وأحياناً يحدث بسببه وبسبب الأمطار الغزيرة الطّوفان ، الّذي يقتلع الأخضر واليابس ، ويهلك الحرث والنّسل ، والّذي لا يكاد يسلم منه شيءٌ ولا أحد . وليس الطّوفان الّذي حدث أخيراً في السّودان المجاور لمصر بالبعيد . وقد يسّرت الوسائل العلميّة الحديثة الوقوف عن كثب على الدّمار الّذي يحدثه الطّوفان . ومن أعجب ما يحدث في بعض البلاد الّتي يدهمها الطّوفان أنّ الهلكى من البشر بسبب الأفاعي والحشرات الضّارّة الفارّة أمام الطّوفان قد يكونون أكثر من هلكى الطّوفان ذاته . إنّ هذه المعاني كلّها يصحّ لنا أن

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٤٧/٥ ، ٤٨ .

نتمثّلها في حقّ الطّوفان الّذي أرسله الرّحمن جلّ وعلا على فرعون وملئه ومع ذلك هم لم يؤمنوا .

فأرسل الله سبحانه وتعالى الجراد الّذي يدلّ اسمه على فعله فهو يجرد الأرض من النّبات ، يقال : أرضٌ مجرودة أي أُكِل ما عليها حتّى تجرّدت[1] ويصحّ أن نتبيّن الوقع الأليم لإرسال الله تعالى الجراد حينما نتبيّن أنّ الطّوفان يقترن به مجيء الطّمي الجديد والتّربة الجيّدة ، وذلك مظنّة اخضرار الأرض إثر الطّوفان . وهنا يبعث الله سبحانه وتعالى الجراد كي يأكل الخضرة ويجعل الأرض جرداء .

وإذا صحّ أنّ بعض آل فرعون قد استطاع أن يدّخر شيئاً من الثّمرات قبل أن يأكلها الجراد فإنّ الله سبحانه وتعالى انتقاماً من فرعون وملئه يبعث عليهم القمّل وهو السّوس الّذي يخرج من الحنطة[2] وهكذا اصطلح على فرعون وملئه في مجال الطّعام السّنون والنّقص من الثّمرات ، والقضاء على المدّخر من الطّعام بفعل القمّل .

وتجاه إصرار فرعون وملئه على الكفر أرسل الله تعالى عليهم الضّفادع الّتي أزعجتهم إزعاجاً كبيراً حتّى إنّ الواحد لا يكاد يفتح فاه حتّى تدخل فيه ضفدع . ومن أعجب ما يمكن الاستئناس به بشأن الضّفادع وكونها من الجنود الّتي قد يسلّطها الله تعالى على من يشاء من عباده أنّ قارّة استراليا الّتي تعتبر أصغر القارّات وأكبر الجزر والّتي يسكنها حالياً زهاء الخمسة عشر مليون شخص قد سلّط الله تعالى عليها الآن فريقين من جنده الضّفادع والأرانب . ومن أعجب ما عرفت عن هذه الضّفادع أنّها من النّوع السّامّ ، وأنّ الواحدة منها تملأ طبق الطّعام ! لقد عرفت هذا في أثناء كتابة هذه الأسطر .

ومن أعجب ما يمكن الاستئناس به بشأن الضّفادع وكثرتها ونموّها العجيب أنّ العرب الّذين يجدون الضفادع عقب المطر في الأماكن الّتي ليس فيها ماءٌ ولا وحَلٌ ولا عينٌ ولا شريعة ، بل ربّما وجدوها عقب المطر في الفلاة وفي الأراضي الصُّلبة ذوات الحجارة وما إلى ذلك ، أنّ العرب بسبب كلّ هذه العجائب المرتبطة بالضّفادع ربّما ظنّ بعضهم أنّ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جرد » ٩٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٢٢ .

الضّفادع الّتي توجد عقب المطر مباشرة ربّما كانت في السّحاب ![1] وقد صحّح الجاحظ هذه النّظرة للضّفادع غير المصيبة .

وتجاه إصرار فرعون وملئه على الكفر وتكذيب موسى عليه السّلام أرسل الله تعالى عليهم الدّم العبيط ، أي الطّريّ الخالص ، فصارت مياه آل فرعون دماً . لا يستقون من بئرٍ ولا نهر ولا يغترفون من إناءٍ إلاّ عاد دماً عبيطا[2] وكان أحدهم إذا أراد أن يشرب تحوّل ذلك الماء دماً[3] .

لقد أرسل الله تعالى على فرعون وملئه تلك المعجزات لموسى عليه السّلام آياتٍ مفصّلاتٍ وعلاماتٍ بيّنات على نبوّة موسى عليه السّلام فكفروا واستكبروا عن عبادة الله تعالى وكانوا قوماً مجرمين مصرّين على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ العذاب حينما وقع على فرعون وملئه ونزل بساحتهم قالوا لموسى عليه السّلام يا موسى ادع لنا ربّك بما عهد عندك وبما أوصاك وأمرك به[4] وبما أوحى به إليك وأعلمك به من رفع العذاب بالتّوبة وكشف الغمّة بالدّعاء وإجابة المضطرّ بالإنابة ، ادع لنا ربّك الّذي اصطفاك بالرّسالة وربّاك بنعمه وآلائه أن يكشف عنّا العذاب . وفي المقابل نحن نقسم لك لئن كشفت عنّا العذاب ورفعت عنّا الإصر لنؤمنّ لك ، ولنصدّقنّ أنّك رسول ربّ العالمين ولنرسلنّ معك بني إسرائيل إلى أرض الشام .

---

(١) انظر الحيوان للجاحظ ١٥٦/١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤٢/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٢٤/٩ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٢٩/٩ .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

اليمّ : البحر المالح[1] الّذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثمّ ورده فرعون وجنوده على أثرهم[2] .

بأنّهم كذّبوا : بسبب أنّهم كذّبوا[3] .

مشارق الأرض ومغاربها الّتي باركنا فيها : يعني الشّام[4] .

وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا : قال مجاهد وابن جرير : وهي قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[5] والحُسْنى مؤنّث الأحسن تفضيل الحَسَن وضدّ السُّوأى والعاقبة الحسنة[6] .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ وتفسير الطّبريّ ٩/٣٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ .

(٦) انظر مثلاً القاموس المحيط « حسن » .

ودّمرنا : وأهلكنا[1] .

ما كان يصنع فرعون وقومه : ما كانوا يصنعونه من العمارات والمزارع[2] .

وما كانوا يعرشون : وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور[3] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا كشف عن فرعون وملئه العذاب إلى أجلٍ هم بالغوه ، وموعدٍ مضروبٍ هم صائرون إليه ، وغايةٍ لكلّ واحدٍ منهم كتبها الله تعالى عليهم ، ونهايةٍ محدّدة تنتهي فيها آجالهم ، وكيفيّة معيّنة يتحقّق وفقها بإذن الله تعالى موتهم وهلاكهم ، إذا هم ينكثون العهود وينقضون المواثيق . وإذا ها هنا للمفاجأة[4] وكأنّ فرعون وملأه فاجأوا موسى عليه السّلام وقومه بنكث العهد ونقض الميثاق .

والآية الكريمة التّالية الّتي تبدأ بحرف العطف الفاء الدّال على التّرتيب مع التّعقيب وترتّب اللّاحق على السّابق تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى انتقم من فرعون وملئه فأغرقهم جلّ وعلا في البحر المالح حينما تتبعوا موسى عليه السّلام وقومه الّذين اتّجهوا إلى أرض الشّام فارّين بدينهم من فرعون وملئه وأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدرٍ بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وكونهم عنها غافلين . وقد جاء في سورة الشّعراء[5] تفصيل ذلك الإغراق في قوله عزّ من قائل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنّكم متّبعون . فأرسل فرعون في المدائن حاشرين . إنّ هؤلاء لشِرْذِمَةٌ قليلون . وإنّهم لنا لغائظون . وإنّا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنّات وعيون . وكنوز ومقامٍ كريم . كذلك وأورثناها بني إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون . قال كلّا إنّ معي ربّي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرقٍ كالطّود العظيم . وأزلفنا ثَمّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخرين . إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٣٠ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٣٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٣٠ .

(٤) تفسير ابن عطيّة ٦/٥٣ .

(٥) الآيات ٥٢ ــ ٦٨ .

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أورث القوم الّذين كانوا يُسْتَضْعَفون من فرعون وملئه وهم بنو إسرائيل مشارق أرض الشّام ومغاربها الّتي بارك الله سبحانه وتعالى فيها بالخيرات المعنويّة في هيئة موكب رسل الله تعالى الكرام ، وبالخيرات المادّيّة فهي بلاد الأطعمة الشهيّة ، والخضر البهيّة ، والفواكه اللّذيذة ، كما تقرّر الآية الكريمة أن كلمة الله تعالى الحُسْنى قد تمّت على بني إسرائيل بسبب صبرهم . وهذه الكلمة الحُسْنى الّتي تمّت على بني إسرائيل هي قوله تعالى في سورة القصص[1] : ﴿ ونريد أن نمنّ على الّذين استُضْعِفوا في الأرض ونجعَلَهُمْ أئمّةً ونجعَلَهُمُ الوارثين . ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

وقد دمّر الله سبحانه وتعالى وأباد ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع وما كانوا يعرشون من الأبنية والقصور .

---

(١) الآية ٥ ، ٦ .

بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْنًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ

الآيات (١٣٨ - ١٤١)

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

فأتوا : أي فمرّوا[1] .

يعكفون على أصنامٍ لهم : يقيمون على عبادتها[2] .

قال إنّكم قومٌ تجهلون : أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزّه عنه من الشّريك والمثيل[3] .

مُتَبَّرٌ ما هم فيه : هالكٌ ما هم فيه[4] .

قال أغير الله أبغيكم إلهاً : معبوداً وأصله أبغى لكم[5] أسِوى الله ألتمسكم إلهاً وأجعل لكم معبوداً تعبدونه[6] .

وهو فضّلكم على العالمين : والله الّذي هو خالقكم فضّلكم على عالمي دهركم وزمانكم[7] .

حينما فرّ موسى عليه السّلام وبنو إسرائيل من فرعون الطّاغية وملئه واتجه شرقاً نحو

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٢ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٣ .

(٥) الجلالين .

(٦) تفسير الطّبريّ ٩/٣٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٩/٣٢ .

الشّام أتبعهم فرعون وملؤه حتّى وجد موسى عليه السّلام نفسه أمام البحر الأحمر فأوحى الله تعالى إليه أن يضرب بعصاه البحر فانفلق البحر بإرادة الله تعالى وكان الطّريق يبساً لموسى عليه السّلام وملئه ونجّى الله تعالى موسى وبني إسرائيل وأغرق فرعون وملأه .

والعجيب في أمر بني إسرائيل قوم موسى عليه السّلام أنّهم بعد أن جاوزوا البحر الأحمر المالح الّذي أغرق الله تعالى فيه فرعون وملأه مرّوا على قومٍ يقيمون على عبادة أصنامٍ لهم من دون الله تعالى ويرتكبون الذّنب العظيم الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه ، والعجيب في أمر بني إسرائيل الّذين نجّاهم الله تعالى من عدّوه جلّ وعدّوهم لتوّهم أنّهم بدلاً من أن ينكروا على القوم بشدّة عبادة الأصنام الّتي لا تنفع ولا تضرّ ، وبدلاً من أن يقابلوا إحسان الله تعالى إليهم بالإحسان وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة ، هم يطلبون من موسى عليه السّلام أن يجعل لهم إلهاً ويتّخذ لهم صنماً يعبدونه من دون الله على غرار الأصنام الّتي يعبدها القوم المشركون !

وتجاه حُمْق بني إسرائيل وسفههم وجهلهم حقّ الله تعالى الواجب عليهم بإفراده جلّ وعلا بالعبادة يكون جواب موسى عليه السّلام الفوريّ لطلب قومه كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ قال إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ إنّ بني إسرائيل قومٌ يجمعون بين الجهل بحقّ الله تعالى ، أي عدم العلم بوجوب إفراد الله تعالى بالعبادة ، وبين الجهل بمعنى الخفّة والسّفه والطّيش وإلاّ ما أقدموا على طلب الإذن من موسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم الّذي لازال يعيش بين ظهرانَيْهِمْ بأن يأذن لهم في الشّرك وهو الّذي يدعوهم إلى التّوحيد !

ويقرّر موسى عليه السّلام حقيقة هؤلاء القوم المشركين فيبيّن أنّ ما فيه القوم المشركون من شركٍ هالكٌ وزائلٌ بإذن الله تعالى لأنّه أعظم ذنبٍ لا يغفره الله جلّ وعلا فينبغي الكفّ عنه والعمل على القضاء عليه ، كما يبيّن عليه السّلام أنّ ما كان يعمل أولئك القوم المشركون من أعمال تتعلّق بتلك الأصنام باطلٌ يجب أن يزول وعارٌ ينبغي أن يمّحى .

وبعد أن يتحدّث عليه الصّلاة والسّلام عن جهل قومه وظلم عابدي الأصنام أنفسهم يتحوّل إلى الحديث عن ذاته عليه السّلام ، وها هو ذا عليه السّلام في أسلوب الاستفهام ينكر على قومه أن يسألوه عليه السّلام أن يأذن لهم في ابتغاء غير الله تعالى إلهاً معبوداً من دون الله تعالى ، وذلك في هيئة الأصنام الّتي يعبد مِثْلها القوم الكافرون . وإنّما يكون إنكار موسى عليه السّلام على قومه كبيراً حقّاً حينما يكون هؤلاء الّذين يريدون أن يتّخذوا الأصنام آلهةً معبودةً من دون الله تعالى هم الّذين فضّلهم الله تعالى على عالمي

زمانهم . إنّ هذه الملابسات من أسباب ثورة موسى عليه السّلام العارمة على قومه .

وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

آل فرعون : قومه وأتباعه وأهل دينه[1] .

يسومونكم سوء العذاب : يذيقونكم ويلزمونكم إيّاه[2] .

ويستحيون نساءكم : استحياه وأحياه بمعنىً واحد[3] .

حينما كان فرعون الطّاغية يخشى على ملكه من مولود في بني إسرائيل سام بني إسرائيل وكلّفهم وأذاقهم سوء العذاب وأشدّه وأشقّه بتقتيل الأبناء الذّكور واستبقاء الإناث اللّاتي لا يخافهنّ الطّاغية . وقد عبّر عن الإناث بالنّساء لأنّ النّفع من الأنثى حينما تبلغ مبلغ النّساء أكبر ، وهذا النّفع هو الّذي يحرص عليه فرعون وآله لذا عبّر عن الإناث بالنّساء . وحينما غُلِب سحرة فرعون على رءوس الأشهاد وآمنوا بالله رب العالمين ربّ موسى وهارون وخرّوا له جلّ وعلا سجّداً هدّد الطّاغية السّحرة المؤمنين بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النّخل ، كما هدّد بني إسرائيل بتقتيل الأبناء واستحياء النّساء .

إنّ الآية الكريمة تشير إلى تعذيب آل فرعون بني إسرائيل وتقتيل ذكور الأطفال واستبقاء إناث الأطفال ، وتقرّر أنّ ذلك التّقتيل بلاءٌ عظيمٌ وامتحانٌ عسيرٌ من ربّ العالمين لبني إسرائيل . وتنبّه إلى نعمة الله تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وآله .

إنّ الآية الكريمة تريد بتذكير بني إسرائيل بالنّعم بعد النّقم أن تقول لبني إسرائيل : لا ينبغي لكم أن تبادلوا الإحسان بالكفران وذلك بالإشراك مع الدّيّان .

---

(١) تفسير القرطبي ٣٢٥ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٣٢٧ .

(٣) البحر المحيط ١٨٨/١ .

مجيء موسى عليه السلام لميقات ربه واصطفاؤه بالرسالة وبالكلام

الآيات (١٤٢ - ١٤٧)

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

وواعدنا موسى : لمناجاتنا[1] .

ثلاثين ليلة : من ذي القعدة[2] .

وأتممناها بعشرٍ : من ذي الحجّة[3] .

فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة : فتّم وقت وعده بكلامه إيّاه[4] وكمل الوقت الّذي واعد الله موسى أربعين ليلةً وبلغها[5] .

بعد أن نجّى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام وملأه من فرعون وملئه وأغرق فرعون وملأه في البحر الأحمر الّذي عبره موسى عليه السّلام وبنو إسرائيل إلى شبه جزيرة سيناء واعد الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام ثلاثين ليلةً يصومها يكلّمه جلّ وعلا بعدها . فصام موسى عليه السّلام الثّلاثين ليلةً وأنكر بعدها خُلوف فمه وتغيّر رائحته وفسادها فاستاك فأمره الله تعالى بصيام عشر ليالٍ أخر ليكلّمه بخُلوف فمه ، فصام عليه السّلام الأيّام العشرة ، وثمّ ميقات ربّه جلّ وعلا وحان وقت وعده تعالى بكلامه إيّاه .

ومع أنّ هارون عليه السّلام رسولٌ من ربّ العالمين فإنّ موسى عليه السّلام الحريص على نقاء عقيدة التّوحيد يأمر أخاه هارون عليه السّلام بأن يكون خليفته على بني إسرائيل فترة ذهابه عليه السّلام إلى الميقات وأن يصلح في كلّ شيء وبخاصّة في مجال الدّين وألاّ يتّبع سبيل المفسدين وأن يكون صارماً معهم شديد الغضب في حقّ الله تعالى لو هُضِم وألاّ تأخذه عليه السّلام في الله لومة لائم .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٣٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٣٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٣٢ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير الطّبريّ ٩/٣٣ .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قال ربّ أرني : نفسك[1] .

فلمّا تجلّى ربّه للجبل : فلمّا اطّلع الرّبّ للجبل[2] .

جعله دكّا : أي مستوياً بالأرض[3] .

وخرّ موسى صعقاً : أي مغشيّاً عليه[4] .

لمّا جاء موسى عليه السّلام لميقات ربّه جلّ وعلا ووقت وعده تعالى بكلامه إيّاه عليه السّلام ، وانظر إلى جملة جاء الّتي تدلّ على القرب والوصول والانتهاء ، ولمّا كلّم الله تعالى موسى عليه السّلام « بلا واسطة كلاماً سمعه من كلّ جهة »[5] وانظر إلى لفظة ربّ في القول ﴿ وكلّمه ربّه ﴾ وهو اللّفظ الحبيب الّذي يستعمل في مواقف الخصوص ومواطن الرّضا والّذي ينبّه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ، لمّا جاء موسى عليه السّلام لميقات ربّه جلّ وعلا وكلّمه ربّه جلّ وعلا بلا واسطة ، وهذا الكلام ممّا خصّ به موسى عليه السّلام الكليم بين سائر النّبيّين والمرسلين ، كان من موسى عيه السّلام إحساسٌ يعجز كلّ كلام عن التّعبير عنه ، بالرّضا والامتنان والفرح والبشر ، لما أكرمه الله تعالى به من هذه الخاصيّة الّتي ليست لواحدٍ من النّبيّين ، وقد جاء في سورة البقرة[6] مثلاً قوله تعالى :

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٣٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٣٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/٣٧ .

(٥) الجلالين .

(٦) الآية ٢٥٣ .

﴿ تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض . منهم من كلّم الله ﴾ والّذي كلّمه الله تعالى هو موسى عليه السّلام . وكان هذا الإكرام الّذي خصّ الله به سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام وهو الكلام بلا واسطة مشجّعاً لموسى عليه السّلام الكليم أن يسأل الله سبحانه وتعالى من فضله جلّ وعلا ممّا يعتبر الكلام موّطئاً له وسبباً إليه وهو أن يرى الله سبحانه وتعالى في الدّنيا كما كلّمه في الدّنيا ، وأن يخصّه بالرّؤية قياساً على خصوصيّته جلّ وعلا إيّاه بالكلام . قال عزّ من قائل : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك ﴾ والرّؤية إدْراك المرئيّ[1] والنّظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشّيء ورؤيته[2] والمراد هنا تقليب البصر .

ويلاحظ أنّ حرف الجرّ « إلى » يستعمل في القول : ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ وليس حرف الجرّ « في » مثلاً ولاستعمال حرف الجرّ « إلى » هنا حكمةٌ بالغة يصحّ أن نتبيّنها حينما ننظر إلى الفرق بين معنى الحرفين . « يقال نظرتُ إلى كذا إذا مددتَ طرفك إليه رأيته أو لم تره . ونظرتُ فيه إذا رأيته وتدبّرته . قال : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، نظرت في كذا تأمّلته . قال : فنظر نظرةً في النّجوم . فقال إنّي سقيم »[3].

وهكذا يتبيّن أنّ القول على لسان موسى عليه السّلام : ﴿ ربّ أرني أنظر إليك ﴾ يفيد شوق موسى عليه السّلام لرؤية الذّات العليّة في عليائها ، إكراماً منه جلّ وعلا له بعد إكرام وهو العبد المخلوق الّذي يعلم حقيقة قدر العبد ، والّذي يعلم كذلك مقام الرّبوبيّة الرّفيع السّناء . إنّ موسى عليه السّلام الّذي خصّه مولاه بكلامه إيّاه يسأله جلّ وعلا ما يصحّ أن يكون مترتّباً عليه ، لذا جاء القول : ﴿ أنظر إليك ﴾ الّذي يفيد أنّ الرّؤية يصحّ أن تترتّب على النّظر ويصحّ ألاّ ترتّب عليه . والحقيقة أنّ موسى عليه السّلام كان حريصاً على أن يترتّب على النّظر رؤية الوجه الكريم .

ويكون الجواب من الحقّ جلّ وعلا على موسى عليه السّلام كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ قال لن تراني ﴾ والمعنى أنّك لن تراني يا موسى في هذه الحياة الدّنيا .

ويصحّ في هذه المناسبة الاستئناس بالآية الكريمة الثّالثة بعد المائة من سورة الأنعام .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « رأي » ٢٠٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « نظر » ٤٩٧ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « نظر » ٤٩٧ .

قال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير ﴾ وسبق أن قلنا في تفسير الآية الكريمة[1] « وإذا نظرنا إلى القول : لا تدركه الأبصار ، من زاوية هذه الحياة الدّنيا فهمنا أنّ الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولا تراه جلّ وعلا .

وإذا نظرنا إلى القول من زاوية الحياة الأخرى وجدنا التّفسير الشّافي في القرآن الكريم وفي سنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى : وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربّها ناظرة . وقوله تعالى عن الكافرين : كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون .

قال الإمام الشّافعيّ : فدلّ هذا على أنّ المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . وأمّا السّنّة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد وأبى هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحدٍ من الصّحابة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ المؤمنين يرون الله في الدّار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنّات جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه . وقد أخبر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمّته أنّهم سيرون ربّهم يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر وكما ترون الشّمس ليس دونها سحاب » .

إنّ الجواب الّذي تلقّاه من الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام من الأدلّة على أنّ الحقّ جلّ وعلا لا تدركه في هذه الحياة الدّنيا الأبصار : ﴿ قال لن تراني ﴾ .

وإنّ الدّليل الّذي تلقّاه من الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام دليلٌ إضافيٌّ على ذلك . إنّ ربّ العزّة يقول لموسى عليه السّلام الّذي شجّعه فضل مولاه عليه بالكلام على أن يسأله الرّؤية : إنّك يا موسى لن تراني في هذه الحياة الدّنيا ولكن انظر إلى هذا الجبل الّذي أمامك والّذي هو أقوى منك وأضخم فإن استقرّ مكانه وثبت على حاله ولم يختف من الوجود حينما أتجلّى أنا الحقّ للجبل فسوف تراني يا موسى لأنّ بقاء الجبل بعد تجلّي نوري عليه مظنّة بقائك يا موسى بعد تجلّي نوري عليك . أمّا إذا ما استقرّ الجبل مكانه وهو أقوى منك وأضخم فذلك معناه أنّك يا موسى أضعف وأعجز من باب الأَوْلى والأحرى . فلمّا تجلّى ربّ موسى وهارون ربّ العالمين للجبل « أي ظهر نوره قدر نصف أنمله الخنصر كما في حديث صحّحه الحاكم »[2] جعل الجبل دكّاً مستويّاً بالأرض وخرّ موسى عليه الصّلاة

---

(١) التّفسير البسيط ٧/٢٤٥ .

(٢) الجلالين .

والسّلام مغشيّاً عليه لهول ما رأى[1] .

فلمّا أفاق موسى عليه السّلام من غشيته قال للحقّ جلّ وعلا سبحانك وتنزيهاً لك عن أن يراك مخلوقٌ في هذه الحياة الأولى إلاّ هلك ، إنّي تبت إليك ياربّي من قولي السّابق : ﴿ ربّ أرني أنظر إليك ﴾ وإنّي أوّل المؤمنين في هذه الأمّة بأنّك لن ترى في هذه الحياة الأولى وبأنّ الأبصار لا تدركك جلّت قدرتك وتعالت عظمتك سبحانك .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السّلام الّذي ثاب إليه فهمه وتاب إلى بارئه جلّ وعلا : ﴿ يا موسى ﴾ ومن البيّن أنّ ذكر الاسم دليلٌ على رفيع المنزلة عند من ينادِي . إنّي اصطفيتك على النّاس واخترتك من بين عالمي زمانك واجتبيتك برسالاتي إلى بني إسرائيل ، فأنت يا موسى أحد رسلي ، بل أحد أولى العزم من الرّسل ، واصطفيتك دون سائر النّبيّين والمرسلين بكلامي ومناجاتي فخذ ما آتيتك واستمسك بما أعطيتك من أمري ونهيي وكن من الشّاكرين نعمي وآلائي وفي مقدّمتها نعم النّبوة والرّسالة والمناجاة والوحي .

والمعروف أنّ الأخذ يرتبط به القوّة والشّدّة ، وأنّه يرتبط باليد أساساً .

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى كتب لموسى عليه السّلام في ألواحِ التّوراة الّتي أوحاها الله تعالى إليه من كلّ شيءٍ نافع في مجال الدّين والدّنيا ، موعظةً ترقّ لها

---

(١) الجلالين .

القلوب ، وتفصيلاً لكلّ شيءٍ في ميدان الحلال والحرام . وتأمر الآية الكريمة موسى عليه السّلام أن يأخذها كلّها بقوّة ، بجدّ واجتهاد[1] وأن يأمر قومه بني إسرائيل أن يأخذوا بأحسن تعاليم التّوراة ، وذلك بأخذهم بجدٍّ واجتهاد الأفضل في حال التّخيير والأحسن ، كالعفو والقصاص ، والصّبر والانتصار[2] إنّ العفو والصّبر هما الأحسن . وكذلك بأخذهم بجدٍّ واجتهاد ما أمروا به في حال عدم التّخيير فإنّه هو الأحسن لأنّه مأمورٌ به من الله تعالى أو منهيٌّ عنه . قال ابن عبّاس : أُمِرَ موسى أن يأخذها بأشدَّ ممّا أُمِرَ به قومه[3] وكيف لا يؤمر عليه السّلام بالأكمل وهو أحد أولي العزم من الرّسل الخمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يُرى موسى عليه السّلام وبني إسرائيل دار الفاسقين . والفسق بمعنى الخروج عن طريق الطّاعة والاستقامة . والمعروف أنّ السّين تدلّ على المستقبل القريب . وقد عرفنا أنّ موسى عليه السّلام وبني إسرائيل قد تركوا وراءهم مصر دار فرعون وملئه الّذين أغرقهم الله تعالى ، وأنّهم يتّجهون آنذاك صوب الشّام . وبناءً على ذلك يصحّ أن يكون المراد بدار الفاسقين دار الفاسقين آنذاك الّذين انحرفوا عن الصّراط المستقيم في ديار الشّام ، الأرض الّتي باركها الله تعالى بالنّبوّات وبالخيرات . والله تعالى أعلم .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٤٠ .

(٢) تفسير ابن عطيّة ٦/٧٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/٤٠ .

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

تتحدّث الآيتان الكريمتان عن صرف الله تعالى قلوب الّذين انصرفوا عن الهدى والرّشاد إلى الضّلال والهلاك وزيادة بصائرهم عمًى إلى عماها ، وعن عقابهم الأليم في الآخرة .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سيصرف عن آياته البّينات وعلاماته الواضحات ، سواءٌ أكانت كلاميّة أم ماديّة ، أولئك الّذين يتكبّرون على عباد الله تعالى في الأرض بغير الحقّ ، ويستكبرون عن عبادته جلّ وعلا ، ويكذّبون رسله ، ويصدّون عن سبيله جلّ وعلا . إنّ الله سبحانه وتعالى سيزيد قلوبهم انصرافاً وبصائرهم عمى . والعجيب في أمر هؤلاء المتكبّرين ، دليلاً على زيادة الله تعالى قلوبهم الّتي في صدورهم عمىً إلى عماها ، أنّهم إن يروا كلّ آيةٍ دالّةٍ على الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرّشد والسّداد الّذي يدعو إليه رسل الله تعالى ويهدون لايتّخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغيّ والضّلال يتّخذوه سبيلا . إنّ ذلك بسبب أنهم كذّبوا بآيات الله تعالى وكانوا عنها غافلين .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى الدّالّة على وحدانيّته جلّ وعلا ، والّذين كذّبوا بلقاء الله تعالى وباليوم المجموع له النّاس المشهود حبطت أعمالهم الصّالحة الّتي ما أرادوا بها وجه الله تعالى من صلة رحم ورعاية حقوق جار وإغاثة ملهوف وما إلى ذلك لأنّهم ارتكبوا الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه .